القصص

قصة مصرية

دموع بريئة

للاستاذ محمود الخفيف

عرفته فتى فى الثامنة عشرة ، طويل القامة فى غير إفراط ، نحيل الجسم فى غير هزال ، مهيب الطلعة فى غير تأنق ، حلو الحديث فى غير تكلف ، ولست أذكر وقد مضى على تعارفنا نحو ستة أعوام ما الذى جذبني اليه حين رايته لأول مرة ، حتى لقد امتزجت روحى بروحه ، أهو هدوؤه ورزانته أم نشاطه وهيبته ؟ وكل ما أتذكره الآن هو انى رأيته فاحببته ، ولشد ما ابهج نفسى أن رأيته يحس نحوى ما أحس نحوه ، فما هى إلا أيام حتى توثقت عرى المودة بيننا ، واستحكم الوفاق بين قلبينا ، وصار كلانا يأنس بصاحبه ويهش للقائه ، ويحرص على رضائه .

ولما عاشرته وتبينت خلاله ، أعجبنى منه أدبه الجم ، ووقاره العاقل ، وقلبه الرحيم ، وأكبرت منه نظراته الهادئة ونفسه المتوثبة ، وعواطفه الثائرة ، وشبابه المرح ، وروحه الجذابة .

وتبينت فيه شاعراً يقدس الجمال ويعشق الطبيعة فى خيال خصب ، وذهن متوقد ، وحس دقيق ، كما تبينت فيه على حداثته فيلسوفا بعيد النظر ، دقيق الملاحظة ، حلو الفكاهة ، عذب الروح ، ورأيته مشغوفا بالحياة مقبلا عليها قانعا بحظه منها ، راضياً عن نفسه ، غير ساخط على أحد .

ولقد جعلنى منذ أن تعارفنا موضع سره ، يحدثنى فى غير تحفظ ويجد عزاء طيباً فى أن يبثنى لواعج نفسه وخطرات حسه ، كما يجد هناء سائغاً فى ان أشاطره مسراته وأسباب سعادته .

وكان حديثه تارة حزينا يستدر الدموع ، وتارة بهيجا يملأ جوانب النفس سروراً وغبطة ، وكان يقص على مشاهداته فى الحياة ، غير انه كان يشفعها بآرائه أو يمزجها بخواطره فيكسبها بذلك قوة تحرك القلب وتستثير العواطف . وكنت أحرص على أحاديثه إذ أرى فيها خواطر فتى كبير القلب راجح العقل .

غاب عنى شهراً فاشفقت أن يكون قد مسه الضر ، وأردت أن أذهب اليه ، ولكن الخادم أحضر إلى كتابا تبينت خطه على غلافه ، ففضضته فى شغف فاذا به يخبرنى أنه سيكون عندى فى المساء ،

ومرت الساعات ثقالا حتى كانت الثامنة ، فاذا هو يطرق الباب ، ثم يفتحه في هدوء . ودخل علىّ شاحبا مكدوداً واجما مهموما . ومد الى يده وكانه قرأ فى وجهى إشفاقي وتلطفي ، فابتسم ابتسامة قصيرة ، ثم جلس وقد اتكأ بمرفقه على حافة المقعد ، وأسند رأسه الى قبضة يده ، وشملته كآبة مرعبة دق لهـــا قلبى ، فانا أعرفه ثائر العواطف واسع الرحمة يستوقف بصره بكاء بائس فتدمع مقلتاه ، ويطرق اذنه أنين ملتاع فيملك عليه مشاعره ، وكثيرا ما أظهرت له إشفاقى فكان يضحك منى قائلا : لاحيلة فى ذلك فتلك جبلته ، ولقد كان يتهم نفسه بالطفولة ، ولكنه كان يعود فيفتخر بهذه الطفولة التى تملأ قلبه رحمة وحنانا .

وأطرق قليلا ، ثم رفع رأسه وقال وهو يضحك ضحكة غريبة ، تعبر عن الأسى والألم :

ـــ هو شهر ، ولكنه قرن فى حوادثه ـــ

وتالله لقـــد ألهب شوقى بتلك العبارة فاصخت بسمعى اليه ، وأقبلت بكليتى عليه ، وفهم هو من نظراتي أني أستعجله ، فهز رأسه هزة عصبية وقال :

لله ما أغرب هـذا المسرح الهائل ، مسرح الحياة الذى يموج بالناس فى غير نظام ، وكل يلعب دوره حتى يسدل الستار عليه فاذا هو فى طى الفناء وفى أغوار الابدية . هذا ضاحك مستبشر ، وهذا فرح فخور . وهذا بائس محزون ، وهذا حائر مشدوه ، وهذا ضعيف مستسلم ، وهذا مغتر متطاول ، وهذا . . . وأخيراً يتساوى الجميع فيساقون فى سكوت كل الى حفرته .

قلت أمرك عجب أيها الصديق ، وهل هـــذا ما يحزنك هذا الحزن ؟ لكأني بك قد اجتمعت فيك كل هذه الصور . ماذا أحزنك وعهدى بك مرحا خلى البال ؟

وتنهد الفتى تنهداً عميقاً وقال :

ـــ على هذا المسرح المرعب أو قل فى زواياه التى لا تراها

إلا الأعين البصيرة ، أو التي لا تراها الأعين إلا مصادفة ، على هذا المسرح الصاخب المضطرب ، وفى هذه الزوايا المتوارية عن الأنظار يوجد من المآسى والالام ما يتفطر له القلب حقاً . . .

وقاطعته قائلا : هون عليك يافيلسوفنا الصغير ، وما لك ولهذا الانقباض وأنت فى زهرة العمر ؟

فنظر إلي نظرة لوم وقال :

ـــ ما حيلتى وتلك جبلتي ؟ يرانى الناس ضاحكافرحا فيظنون اني خلو من الهموم ، وتالله ما ضحكى إلا خداع منى لنفسى ومغالبة لشعورى ، هو كالزهر الصناعى يغالط به الطفل نفسه . . . ولكن . . . ولكن أراك على حق ، فسأضحك وسألعب وسأنسى كل شيء . . . نعم سوف أضحك مع الضاحكين . . . وسوف لا أبكى بعد اليوم مع أحد أو على أحد . . .

وضاحكته أستطلع دخيلة نفسه وحقيقة أمره فاعتدل فى جلسته وتوثب وتحفز واستجمع قوته ثم قال في قوة وعزم :

هو دور لعبه أمامى وياليتنى لم أره ، ولكن ما أسخف لعبته هذه ! . . ليكن ما يكون وليكن ما قدر وهو كائن .

قلت ما الامر ؟ انك تحيرنى .

فاستطرد في صوت أبح لم أسمعه منه قبل اليوم وقال :

« هن فتيات أربع ، جئن فسكن فى المنزل المجاور لنا ، وكان قبل مجيئهن تسكنه سيدة وابنها وهو فتى فى نحو الخامسة والعشرين ، ولقد تبينت بعد مجيئهن أنهن اخوته ، وكان أول ما رأيتهن فى ظهيرة يوم عند ما عدت الى المنزل ، ففتحت النافذة كعادتي فى كل يوم وإذا بى أراهن أمامى لا يكاد يفصلنى عنهن إلا نحو سبعة أمتار ، وما وقعت انظارهن علي حتى جرين مسرعات الى داخل الحجرة واقفلن الباب من وراءهن ، إلا صغراهن وهى فى العاشرة تقريبا فقد ظلت ترمقنى بنظرات ساذجة بريئة ، وكانها وكانت تجيد « لعبة اليويو » قد أرادت أن تريني مهارتها فأخذت تلعبها وتنظر إلي ، فابتسمت فضحكت ودخلت الى اخواتها ضاحكة لاعبة .

ومضيت انا الى بعض المجلات فجعلت أقلبها ولكن نظرى كان كثير الاتجاه دائماً نحو هذا المنزل او نحو ذلك الباب ، وأنت يا أخي تعرفنى أحب الاستطلاع ولا أكاد أستقر حتى تصل نفسى الى ما تريد ، فجلست أختلس النظرات وأتظاهر بالنظر الى الصحيفة التي فى يدى ، فرأيت كبرى البنات وهى في العشرين تقريباً قد وقفت الى الباب فرأيتها ذات حظ من الجمال غير قليل ، غير انه جمال شاحب حزين ، ومرت اختها الصغيرة أمامى وهى فى نحو السادسة عشرة تكسو محياها سمرة خفيفة ، وهى فتاة ضاحكة العينين مرحة جريئة النظرات ، سريعة الحركة ، خفيفة الروح الى حد عظيم .

أما وسطاهن فلم تظهر طول ذلك اليوم ـ ولست أدري وأيم الله لم ضايقنى ذلك وكل ما أذكره هو أنى أحسست بانقباض وضيق لعدم ظهورها ، على أني ما لبثت أن ضحكت ، بل وسخرت من نفسى ومضيت الى كتبي ونسيت من أمرها ومن أمرهن كل شيء .

وفى صبيحة اليوم التالى نزلت الى عملى فتبينت وجهها من خلال زجاج النافذة ، جميلة رائعة الجمال ، دعجاء المحاجر ، بيضاء الوجه ، دقيقة الأنف ، حلوة اللفتة ، ناهدة الصدر ، وفى ظهر ذلك اليوم رأيتها واقفة فلم تهرب كعادتها بل رفعت إلي بصرها ، ثم دخلت حجرتها فى هدوء ورزانة .

لا أكتمك يا أخى اني شعرت بميل نحو تلك الفتاة ، كان أول أمره معتدلا عاديا . فقد أعجبنى منها رشاقة جسمها واتزان حركاتها ، وتناسق أعضائها ، وغضارة بشرتها ، وجمال محياها ، وكانت عيناها الدعجاوان ترسلان من أشعتهما حرارة الشباب فتهز قلبي وتفتح جوانب نفسى ، حتى لقد صرت أجد في النظر اليها متعة وهناء أشبه بهناء النفس فى حلم هادىء جميل .

غير ان ما جذبني اليها حقا ، هو تلك النظرات الحزينة الهادئة التى كانت تتخلل نظراتها اللامعة القوية ، وتلك البسمات الخفيفة الفاترة التي كانت لا تلبث أن يطفئها وجوم غريب واطراق مؤثر .

وازداد ميلى اليها الى أن كنا صبيحة يوم فسمعت وأنا بين النوم واليقظة نحيبا متقطعا ، ولست أدرى لم انصرف ذهني اليها لأول وهلة ؟ فقفزت الى النافذة فرأيتها ووجهها بين كفيها ، باكية تئن أنينا موجعا ، وأنا أترك لك أن تقدر لنفسك مبلغ ما نالني من الحزن فى تلك اللحظة الرهيبة ، ولقد كدت أن أصيح بها أن كفكفي دموعك يافتاة ، لولا أنها أفاقت سريعا من غشيتها ومسحت دموعها فى هدوء ثم نظرت الى الشمس المشرقة نظرة حزينة ، يهتز قلبى كلما ذكرتها ، ودخلت بعد ذلك الى مخدعها .

ومنذ ذلك اليوم عرفت طعم الألم حقا ، وكانت تتمثل لى صورتها فيكتنفني من الألم اللاذع ما يمزق شغاف قلبي ويحرك كامن وجدى ، ولا سيما وقد تكرر ذلك منها كثيراً فى الصباح أحيانا وفى المساء أحيانا أخرى .

وأخيراً . . . وأخيراً حم القضاء ووجدت نفسى أسير تلك

الفتاة الحزينة الباكية ، ولك أن تعجب مني ماشئت أنا الذى طالما سخرت من الحب وهزأت بالعاشقين ، أنا الذى طالما وصفت لك الحب بأنه حلم من أحلام الشباب الخادعة ، وسراب خلب يحسبه الظمآن ماء حتي اذا جاءه لم يجده شيئا ، أو فورة دماء واضطراب مزاج لا أقل ولا أكثر ، ولكن الانسان ضعيف لايملك لنفسه ضرا ولا نفعا .

ولماذا أحببتها ؟ أهو جمالها الساحر قد ملك على نفسى ، أم هو حزنها العميق قد صادف عطفا وحنانا فى قلبي ؟ ولكن مالى أبحث عن سر حبها ، ومتى كان الحب أمرا يقبل التعليل ويخضع للتحليل ! مالى لاأقول انى احببتها لأننى أحببتها ، ولتضحك بعدمنى ماشئت ، ولكن لم تضحك ؟ أليس الحب تفاعلا نفسانيا أو مزيجا روحانيا ، يأتى بكل سهولة وبغير أدني ترتيب ؟

أحست باهتمامى بأمرها واشفاقى عليها ، فكانت تشكرنى بابتسامة عذبة ، وصرت أرى فى عينيها ما يدل على الاعتراف بالجميل ، ولكني كنت لاأرى فى نظراتها مايدل على أنها تبادلنى حبي وتطارحنى هيامى ، انها كانت نظرات شكر وامتنان ، وتالله انها كانت تؤلمني أحيانا ، ولكنى كنت في سكرة الحب أعلل النفس بالآمال وأترك للغد القول الفصل والحكم الأخير . ولكن تصرمت أيام دون أن أجرؤ على مخاطبتها ولو بالتحية .

وراقبتها مرة فرأيتها تتأهب للخروج ، وثارت نفسى واعترانى جنون الشباب ، وامتدت يدى الى ملابسى فلبستها دون أن أشعر بشيء أو أدرى ماذا أفعل ، وسرت فى اثرها وان فؤادى ليخفق وان نفسى كلها لتهتز ، الى أن رأيتها تجلس وحدها على حافة قناة صغيرة كانت تقرب من المنزل ، وقد أطرقت قليلا ثم رفعت رأسها فاذا هى ترانى أمامها فساورها مزيج من الدهشة والابتسام والخوف والارتياح والغضب والرضى ، ولست أدرى أني جاءتنى تلك الشجاعة في تلك اللحظة الدقيقة ؟ فقلت فى ثبات :

هل لى يافتاة أن أسألك سؤالا صغيراً ؟

فنظرت الى نظرة عميقة فيها كثير من المعانى ، ويح نفسى انى لأراها الآن ، أرى تلك العينين الدعجاوين ، وتلك التقاطيع الحلوة وذلك الفم الجميل وتينك اليدين الرشيقتين .

قالت وما سؤلك يافتى ؟

قلت : هل لى أن اعرف سبب حزنك وبكائك ؟

فسرت رعدة قوية فى أعضائها ، وتمشت صفرة فاقعة فى وجهها ، وكأنني هززت بذلك السؤال كل كيانها ، وتمتمت بكلمات لم أسمعها ثم قالت :

شكرا لك على اهتمامك بأمرى . لست استطيع ان أجيبك على ماسألت .

قلت ولكنى أريد أن أعرف .

فعظمت دهشتها وبدا على محياها ذهول وخوف ، ثم قالت فى حدة مصطنعة :

وما شأنك أنت والسؤال عن هذا ؟

قلت انى . . . انى . . . أريد . . . أرجو . . .

فساورها الشك فى عقلى فلقد قرأت هذا الشك فى نظراتها ، وحدجتني بنظرة طويلة وقد اغرورقت بالدمع مقلتاها ، ثم أشاحت بوجهها عنى فألحفت وتوسلت فقالت :

اليك عنى واتق الله فى فتاة ضعيفة بريئة .

قلت لا أستطيع البعد عنك .

ثم انهمرت دموعى فصدقت ، وقالت وهي تتنفض من شدة الاضطراب :

حسبتك أحد أولئك الشبان الذين لاأخلاق لهم ، ولقد هممت أن اصرفك فى قسوة .

ثم نظرت الى طويلا دون أن تتكلم ، فقلت في صوت خافت متقطع : ستكونين لى منذ الآن .

فتجهمت قليلا ثم ابتسمت ابتسامة فهمت من معانيها الندم والحسرة والألم ، وهزت رأسها كأنها تريد أن تقول لى انك لاتدرى من الأمر شيئا ، ثم قالت :

دعنى بربك ، ولا تشغل نفسك منذ اليوم بأمرى فلن يجديك ذلك نفعا ، وستبدى لك الأيام صحة قولى ، وصدق نصحى .

وكأنها ارتاعت لوقع ذلك على قلبي فقالت وهي تبكى :

آه ليتنى أستطيع ! . ليتنى أستطيع ! . اتركنى اشكرك على . . .

وغلبها الحزن والبكاء فأجهشت كما يجهش الطفل . فتظرفت اليها ولاطفتها ، ثم تناولت يدها فلم تمانع ، ولما أردت أن أجذبها نحوى نهضت قائمة وسارت لاتلوى على شيء ولم تلتفت وراءها ، وغابت عن بصرى فى منعطف ، فبقيت فى مكانى جامدا كالصخر ثائرا مضطربا ، ثم مرت على دقائق افتقدت فيها نفسى وحسى .

ومرت أيام وأنا أتجنب النظر اليها ما استطعت ، أيام كنت اثناءها كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، ولقد بلغ من نفسى أنني

كنت أرى الأسرة كلها حزينة كأنهم مقبلون على امر خطير . ولما ضاقت بى الدنيا كتبت اليها اطلب عفوها وأبثها لواعج نفسى . وفى صبيحة يوم جلسن جميعا يبكين حول أمهن وأنا حائر مشدوه لا أدرى من أمرهن شيئا ، فناديت البدال فأقبل وهو فتى طيب القلب ، فقلت له : أتدرى يافتى سر هذا الحزن ؟ وأشرت اليهن دون ان يرينى

قال او ماتعلم ؟

قلت كلا .

قال ان صاحب المنزل قد « أوقع الحجز » عليهن وأعقبه بائع الخبز بحجز مثله وفاء لما عليهن من الدين وقد قرب يوم البيع .

قلت وقد دق قلبى دقا عنيفا ـ هل مات أبوهن ؟

قال خير لك الا تعرف عنه شيئا ـ ثم قال :

كان أبوهن تاجرا من كبار التجار ، وكان عظيم الثراء ولكنه لم يرع النعمة وراح يقامر مرة ، ويسرف مرة ، ويتعاطى المخدرات بكثرة مخيفة وهو الآن نزيل السجن من سنتين

وارتفع الدم بغزارة الى وجهي وأحسست بحرارة كحرارة المحموم ، ومرت غشاوة فحجبت بصري ورأيت الجو بعد برهة أصفر مكفهرا ثم قلت :

وأخوهن ؟

قال هو شاب عاطل لايجد لنفسه عملا مع أنه يحمل شهادة عالية . مناه أصدقاء والده كثيرا بوظيفة ولكن أين هي الوظائف الآن ؟ وكثيرا مانصحناه أن يلجأ الى اى عمل حر ، ولكن يظهر ان الأبواب سدت فى وجهه .

قلت أو لم يتقدم أحد لخطبة البنات من قبل ؟

ـ قال بلى . خطبت الكبيرتان ولكن خطبيهما تركاهما بعد ما جرى لأبيهن ماجرى . ثم سكت البدال برهة وقال فى ألم :ـ مع أن البنت الوسطى ولعلك تعرفها ذات الشعر الأصفر ، كانت تحب خطبها لدرجة الجنون

ـ فصرفته ودخلت حجرتي كئيبا ملتاعا وذرفت الدمع سخينا .

وسكت صاحبى برهة ثم قال فى نبرات حزينة : أرأيت كيف يقضى هؤلاء الأغفال على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ؟ ألا قاتل الله الجهالة! انها أصل الفواجع والآلام . ثم قال دونك فاسمع البقية ،

وبدت منه حركة عصبية كانت ظاهرة فى يديه وعينيه وصوته المبحوح وصدره المجروح ، قال :

فى صبيحة اليوم التالى سمع سكان البيوت المجاورة صراخا عاليا ففتحوا النوافذ فوجدوا الدخان يتصاعد من نافذة المطبخ فى ذلك المنزل ، أما أنا فكأنى كنت أعلم بما سيجرى من قبل ، فسكت ولكنه كان سكوت اليأس ، وتجلدت ولكنه كان تجلد الاغماء . وهرع الناس فدخلوا المطبخ فاذا هى ممدودة على الأرض لاتبدى حراكا ، ولم يحترق منها الا شعرها ، وقرر الطبيب أن الوفاة بالاختناق . وارحمة لك يا . . . حتى النار أكبرتك وأشفقت من أن تلهب هذا الجسد الطاهر ، ولكنك جدت بغدائرك الذهبية التى طالما تطلعت اليها الأعين وخفقت لرؤيتها القلوب

وهنا لم يتمالك صاحبى نفسه فاجهش كما يجهش الصبى وناولنى قصاصة من الورق فقرأت فيها ما يلي :

وصلتنى كلمتك الرقيقة ياصاحبى فضممتها الى صدرى وقبلت الخطاب من أجلك ، وذرفت الدمع سخينا شفقة عليك . سامحني واعف عني ، وسنتقابل فى الحياة الأخرى حيث لا شقاء ولا عذاب ، وأرجو أن تستغفر لى الله فى صلواتك ، الوداع .. الوداع والشكر الجميل !

ولما تلوت تلك الورقة وجدته قد غلبه النوم وطول الجهد فاخذت رجليه برفق ومددتهما علي المقعد وعمدت الى ملحفة فنشرتها عليه ، وخرجت علي أطراف أصابعي وتركته لينام عله يجد في النوم بعض الراحة ، وسألت الله أن يشفق به فى أحلامه وأن يهبه العزاء والسلوان ؟

محمود الخفيف

هل تريد ؟

هل تريد الوقوف على اسرار النفس وملكات العقل ؟

هل تريد ايقاظ العبقرية والنبوغ ؟

هل تريد أن تكون شخصية جذابة ؟

هل تريد ان تكون بارعا فى عملك موفقا فى حياتك ؟

هل تريد ممارسة فن التنويم المغناطيسى علما وعملا ؟

كل هذا تجده موضحا باسلوب سلس واضح فى كتاب

ملكات العقل الباطن

يطلب من مؤلفه الاستاذ وليم سرجيوس المحامى بشارع الترعة البولاقية رقم ١٥٦ بالقاهرة ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ٥ قروش